قصة قصيرة

الدخول في الظل

طلال حرب

ما أجمل العودة، التراخي وسط حلم جميل، فيما الزرقة الحالمة تعبر الأفق بين الغيوم الراكدة وطلائع الاشعة التي بدأت تغزو العالم، كانت المدينة تستيقظ كامرأة متعبة، وكنت أجرّ تعبي عائداً من عمل طويل، لم يبق أمامي سوى عدة خطوات وأصل إلى المنعطف ثم تتدفق فاطمة في عالمي، تطل بقامتها المنتصبة في الشرفة، تدنو إلى المنعطف منتظرة أن يقذفني إلى عينيها الدافئتين، وحالما أدخل إلى منزلي تدخل أيضاً، تعلم أنني سأتناول طعامي، سأحتاج إلى عشر دقائق فقط، تختفي خلالها في منزلها المسدل الستائر أبداً، كأنما لتؤكد للمرة التي لا أعرف عددها أنها كانت في انتظاري، انا. وعندما أخرج إلى شرفتي وأمسك الجريدة تخرج مجدداً وتجلس قبالتي متظاهرة بقراءة كتاب تحمله بلا إكتراث، تنزلق عيناي بهدوء تتحسّسان جسدها النافر كالجرح، الناعم كحلم جميل أتسكع حول نهديها العاتيين وأحلم بأنوثتها الصاخبة تضج في عالمي أطفالاً ودفئاً ورتابة، كانت هناك وكنت هنا، يجمعنا حب يذيبني ويذيبها لهفة إلى لقاء منتظر كانت في شرفتها أبداً وكنت في شرفتي أبداً وبيننا الشارع يسير بلا مبالاة حاملاً ضجيجه الذي يذيب كل أحلامي، كل أوهامي، كل الغيوم ومطرها الناعم عند الصباح.

– لو تراني، شعري أسود فاحم ووجهي أبيض تعلوه حمرة شفافة.

– لكم أتمنى رؤيتك ولكنك تصرّين أن يكون الهاتف وسيلتنا الوحيدة.

– ها.. ها.. ها.. هكذا سيبلع بك الشوق حافة الجنون.

نهار آخر يأتي، أحد آخر، سأم قديم تعلوه براعم الانتظار المعهودة والشمس تخطو خطواتها الكئيبة في سماء مقفرة يفترّ ثغرها عن ضحكة قاحلة وساعد مرهق جرائد اليوم في الانتظار ونزهة اليوم الضائعة وفاطمة تتجسد في الشرفة الأخرى عذاباً آخر أقف في محرابه حائراً. ماذا أفعل؟ كيف أتدبر الأمر؟ كيف أبني في هذا العالم الضاري عالماً لي؟ زاوية متألقة؟ هل أترك كل أحلامي تخبو؟ يوم كان أبي يجر أخوتي إلى الحقول القاحلة محاولاً بلا فائدة شقّ صدرها الصخري، كنت الوحيد الذي يشقّ حقول الشمس ويأتي ليجلس على حافة النهر، أرمي فيه الحصى وأتأمل التموجات التي تشبّ فجأة وتذوب في جسد النهر بتراخٍ لذيذ، فأصنع زورقاً يبحر فوق الزرقة الراكضة كمن يخشى أن يفوته موعده المنتظر، أركض معها إلى أرض ليلكية حيث عطرها يمحو كل ضحالة هذه الأرض وشحّها فأقبع تحت مظلة من المطر. لم أكن أرجع أبداً من رحلتي إلا عبر قبضة والدي وشتائمه التي تشق سماء القرية ودموع أمي وتمزق كل الأحلام الورقية التي صنعتها بشغف. يومها وقفت وهززت قبضتي في وجهه وأخبرته أنني قد ضقت ذرعاً به، بأرضه اليابسة وقلبه اليابس وأنني أحتقر أحلامه وعالمه. وعندما أدرت وجهي وسرت بخطى ثابتة في الطريق إلى عالمي أحسست أنني أكثر قوة وصلابة وأنني سأصل. فإلى أين وصلت؟ إلى هذا الشارع الضيق، هذا الزقاق الذي أعجز عن عبوره، عن اجتياز هذا الشريط الضئيل. أتجمد في شرفتي. في انتظار، في انتظار ماذا؟ أحلام قادمة؟ أمل قادم؟ ربما مصيبة قادمة.. ولكن لا، لن أدع إنساناً يهدم ما بنيت. لن أتراجع. لن... فاطمة.

– آلو.

– آلو، سمير هنا؟

– نعم ولا.

– ماذا تعني؟

– سيعود بعد ساعة، خرج ليشتري بعض الحاجات، وأوصاني أن أخبرك بذلك إن اتصلتِ.

– حسناً سأتصل فيما بعد...

– أرجو ذلك.

تريد سميراً، ليس في البيت غيري وأنا كما أعتقد لا أسمى سميراً، وليس لي من سمير، أمضي الساعات الطوال ما بين مرارة الخيبة ووهج الوحشة، أحارب طواحين الهواء، وفجأة يرنّ جرس الهاتف ويدغدغ سمعي صوت أنثوي ناعم يريد سميراً. هل أقول الحقيقة وأترك فرصة ذهبية للإتصال بعالم آخر، بوردة مجهولة يكاد عطرها يملأ خياشيمي؟ لا، كذبة بيضاء...

ولكن فاطمة في الشرفة كذبة دامية وعيناها الحزينتان شلال وعد ينسكب مع كتل الضوء بلا سأم، يرسم للشرفة حداً آخر ولعيني حدوداً لا تعد. من يخبر فاطمة أن عينيها الجميلتين تزهران في البال، تتألقان في شوارع الجسد إذ تقترب العتمة من استبداده لتلفّه في سكينتها الصاخبة، وفاطمة في الشرفة تورق وتزهر مالئة بعطرها عالمي القديم، قلبي الاسطوري الذي يأبى... من يخبر فاطمة عن توحّش عينيها، بطشها في مملكة الرعب القديم، وأن وشاح الدم الذي يحيط بها يمدّ مخالبه الليّنة بلا انقطاع، بلا فائدة. من يخبر فاطمة أن كآبتها الضاحكة بطاقة هوية تمحوها الرياح ومحراث الأيام يحفر فينا يجرّنا إلى حصادنا المنتظر، حيث نقف في العراء ثمرةً فجّةً نخرها السوس وبدأت تتمايل بشكل خطر منذرة بسقوط مبكر.

– فاطمة، توقفي قليلاً، أود أن أكلمك.

– من أنت؟
– ألا تعرفينني؟
– أرجوك، دعني.
– هذه هي المرة الأولى التي أصادفك فيها، دعينا نسير قليلاً، نتحدث، هل تشربين معي فنجان قهوة؟ تعالي.
– لا أريد.
– لا تخافي، لن...
– لست خائفة منك.
– إذن؟
– أنا مشغولة، عن إذنك.
– أنا لا أفهم، يبدو أنني أخطأت، كنت أعتقد أنك تنتظرينني دائماً وربما تحبينني.
– لا دخل لي بتخيلاتك.

كنت أسير بلا مبالاة عندما شاهدتها فجأة للمرة الأولى تتمايل بجسدها الخصب أمامي، أسرعت إليها، لم أكن أريد أكثر من ابتسامة تحملني في ظلمتي إلى أول الضوء، لم أكن أريد أكثر من غرق في جحيم عنادي حتى الوصول، فلماذا أدارت لي ظهرها؟ لماذا؟... يمرّ بي العابرون سريعاً، أمرّ بهم سريعاً لا يلتفتون ولا أهتم، فقط يزعجني الضجيج وصراخ أبي المتواصل بسبب وبلا سبب وحنان أمي المَرَضي، خيالها الذي يوقظ الصباح ويدفنه. أعود للسير، أكثر تعباً، أكثر تصميماً. وإذ أسترجع الوحدة التي أتمزّق فيها أقشعرّ، أكاد أتعثر، ألمّ قامتي وأمضي كقذيفة. وعند المنعطف لأوّل مرة، أُحسّ بجفاف معتم وأنا أجتازه، ولكن فيما كنت أدلف إلى منزلي، لم أستطع منع إلتفاتة ربما بتأثير العادة، فوجدتها هناك، في الشرفة كعادتها بكل جسدها الخصب، دهشت، أدرت عيني في المنازل المحيطة بنا، لم يكن ثمة شاب آخر، عدت بنظري إليها فخيل إليّ أنها هزّت رأسها أن لا أحد ورفعت يدها تشير إليّ، ولكنها رفعتها إلى أعلى وداعبت خصلة مالت بها الريح.

أحسست بها قريبة كعادتها ولكنها جافّة كأرضنا الصخرية، فرفعت يدي أحيّيها وعندما طأطأت رأسها إنتابني غيظ لا يوصف ولفحتني رياح باردة فيما كانت حقول قريتي المشققة من العطش تختفي أمام ناظري بسرعة بعثت فيّ السرور، فلففت أحلامي حول جسدي النحيل وأكملت المسافة.

* * *

– كم عمره؟
– خمسون
– وأنتِ؟
– عشرون.
– ذلك شيء طبيعي إذن، لماذا قبلت به؟

كنت قد مللت نظرات ابن خالتي وزياراته المتباعدة، وبدأت أكره وعوده المعسولة التي أعلم تماماً أنه يستخدمها مدخلاً ليمتلك شفتي، نهدي، جسدي بأكمله ثم يبصقني ويمضي تاركاً في جحيمي احتقاناً هائلاً وجسداً مرعباً أحتار كيف أسجنه من جديد.

شيئاً فشيئاً، صارت صورته تشحب وصار يجد صعوبة أكبر في الحصول على بعض ما يريد حتى تبخّر كلية في واجهات الدكاكين العامرة بالأثواب الجميلة والشفافة. كنت أدور أدور، أحلم أنني أرتدي هذا الثوب وان شبان حيّنا يشهقون وتداعبهم محاسني في شبقهم الأبدي، وكنت إذ أصل إلى وجوههم وسيارة اميركية كبيرة تقف وينزل السائق ليفتح لي الباب، تجتاحني موجة من الرضى لا توصف. وإذ أستفيق من نشوتي تلك بصعوبة أمسح دمعة ساخنة تنحدر على وجنتي، ولكنني في ذلك المساء إذ وقفت أمام مرآتي عارية، أتأمل بكل غبطة جمالي الباهر، أتحسس أنوثتي الساحقة، إنتابني إحساس هائل بأنني سأصل. يومها رسمت خطاً صغيراً يبدأ مني وينتهي حيث ينتهي العالم ماراً بكل الاثواب الجميلة والحلى. وعندما قال لي المدير بعد أن عرّاني بعينيه: «وقّعي هنا» شعرت أنني اخطو أولى خطواتي نحو عالمي الذي رسمته بدقّة. سأعمل الآن وسيكون لي مرتب محدد، مبلغ صغير، مفتاح سحري لكل هذه المخازن، سألبس كل الفساتين التي تعجبني ولن اشتري إلا أجملها، سأحسّ بنعومتها تنسرب على جلدي الذي سيزداد تألقاً، سيلفّني حريرها كباقة زهر يشمّها أمير ساحر يخطفني بعيداً عن هذا الضجيج، هذا الضجيج وسعال أبي وبطن أمي المنتفخ أبداً وشراهة البطون الصغيرة حولي. ولكن شيئاً فشيئاً أدركت كم كنت مخطئة وكيف كأن آخرون ينتظرون معي آخر الشهر بحرقة أكبر.

ومضت الأيام وأنا ما أزال أحدق بالأثواب الجميلة والاحذية اللامعة بأعين زائغة، صرت استطيع أن أدخل هذه الأوكار السحرية مرة أو مرتين في العام، وكان ذلك أكثر شقاء لي، فقد كنت اتراجع بسرعة نحو ثمن معقول فلم يكن كل ما اتقاضاه يكفي ثمناً لفستان واحد من التي يسيل لها لعابي. مللت الفقر، مللت الرغبة، مللت النظر، مللت الأحلام، فأدركت أن سحري وحده لا يكفي وأن جسدي سيذبل في هذه الوحدة القاتمة، فاشتريت نظارة جديدة وعزمت على مساعدته، إيقاف الرجفة في خلاياه. وكانت يداه المرتجفتان تتحسّسان جسدي بنهم فيما كنت أخاف منها وأخاف أخاف... عندما قبّلني لأول مرة شعرت بنعومة الحرير تزهر فوق جسدي واجتاحتني عاصفة وردية، أحسست أن الماضي قد صار بعيداً جداً في زمن سحيق حافل بالنسيان. زمن لن يعود أبداً، لم يعد أمامي غير انتقام رهيب وتصميم لن يحطمه أحد، كنت هناك، في تلك الزاوية الضيّقة وتجاهي العالم ولن يمنعني إنسان قط من أن أفرد أجنحتي وأطير، أحلق، ولن يهمّني أبداً أين سأحطّ بعد ذلك. لم أفكر في الحقيقة كثيراً حول هذه المسألة، فقط عندما أحسست بأصابعه تتغلغل تحت أثوابي أمسكت بها بعنف وجررته إلى بائع الجوهرات فهمس:

– تريدين عقداً؟ سواراً ذهبياً؟ أطلبي ما تشائين وستحصلين عليه فوراً.

أمسكت يده، مرّرتها على جسدي، بينما غمزته: أريد خاتماً،

ثوب عرس وخذ كل العطر الذي أملك.

فأعطاني وأخذ وأخذت وأعطيت، أعطيت، أعطيت وعندما فتحت راحتي كان غد يشرق حافلاً بغيوم سوداء، سوداء.

* * *

- آلو
- عفواً، أعتقد أنني اخطأت في طلب الرقم.
- مهلاً، لم تخطئي، من تريدين؟
- صديقة لي
- وأنا صديق.
- لا، عفواً.
- لا تحرميني من هذا الصوت الانثوي الذي يُعبد.
- في الواقع إنني..
- هل تسجلين رقم هاتفي كي لا تنسيه كي تخطئي مرة ثانية؟ أرجوك، لا أستطيع بعد الآن أن أتخيل عالماً بدونك.
- حسناً.
- اسمي غازي وأنتِ؟
- ستعرف فيما بعد.
- اتخيلك امرأة سحرها يضيء العالم. يملأه بعطر دافىء، ألست كذلك، أنت لا يمكن إلا أن تكوني بهذه الروعة.
- لو تراني!..
- كم أحب رؤيتك!
- لا، ليس سريعاً، عليك أن تنتظر...

كانت تجلس قبالتي بلا تأفف، بغضب، بحزن، بضحكة تجدها في دفاترها العتيقة أو ربما نزولاً عند رغبة أمها أو تهديدها، تجلس قبالتي بلا تأفف، تنتظر في صمت مريب كلمة من شفتي لا أملكها، تنتظر، تنتظر ويشحب لونها ويتهدل جسدها علامة استفهام عميقة، وأنا أقف في العراء أغني لعينيها الجميلتين اللتين لم أرهما أبداً بالرغم من أنني رأيت فخذيها مراراً. كانت تحدق في نقطة مجهولة، تسبح في عالم مضى حيث يأتي أمير على جواده الأبيض ويوقظها بقبلة عارمة فتستيقظ من سباتها العميق لتجده عند قدميها يقسم على حبها إلى الأبد ويساعدها لتمتطي حصانها الأسود ثم ينطلقان مخترقين سعادة لا توصف. عندها أحترف الهرب والتسكع بين البيوت المائلة من الصراخ والضجر وبكاء الأطفال تحت محفظاتهم المدرسية الثقيلة، ولكنني عندما أتوارى خلف المنعطف تقفز السرفة وتذبل شتلات الورد، تهاجر رفوف العصافير تاركة صفرة نحاسية تطفو فوق جلدها الداكن ولحن باهت يتردد صداه الجنائزي في حيّنا مع صراخ الباعة والأطفال والصيادين. عندها كنت أعود، أكثر نحولاً، أشد شقاءً، أعود ساحباً خلفي كل تعاستي وموتي المنتظر، فتعود الشرفة تزهر ويمسّ الربيع بعصاه الخضراء آنية الزهر فتنبثق كحلم صحراوي ويتهادى قدّها المشوق في الشرفة الأبدية تتطاير ضفائرها مع هواء الخريف الناعم تنتظر كلمة من شفتي لا أملكها فيما عيناها الدافئتان تسبحان في عالم مضى.

* * *

- آلو
- سمير، أين كنت؟ منذ أسبوع اتصل ولا أجد أحداً.
- كنت أعمل ساعات إضافية.
- ساعات إضافية! أنت الذي يكره العمل؟
- نعم أكره العمل المتواصل لأنه يأخذ من وقتي، من سعيي إلى بناء مستقبلي، ولكنني كنت مضطراً، فصديقي راغد قد تزوج،وينبغي أن أهديه هدية لائقة والهدية لها ثمنها، وهو ليس بالقليل كما تعلمين، فاستطعت تأمينه عبر ساعات إضافية. ذلك أفضل من حرب تقشفية على امتداد أسابيع..
- أنت تبالغ في وصف فقرك!
- لست فقيراً ولكني لست غنياً. آه لو كنت امرأة!
- ماذا كنت تفعل؟
- كنت تزوجت رجلاً غنياً أما أن تتزوج امرأة غنية من رجل فقير، فهذا ما لم نعد نراه حتى في الروايات!
- ثم تضاجع الليرات بعد ذلك!
- المال يأتي بكل شيء نريده، إنه مفتاح الأبواب المغلقة، ومحراث الحقول الخصبة.
- لكنه لا يجعل الزوج العاجز رجلاً!
- ماذا؟

كان يتمدد بجانبي تمثالاً ميتاً أو جداراً، يتعالى غطيطه كموسيقى جنائزية فيما جسدي يسبح في عريه الكئيب. تذكرت ابن خالتي ولمساته السحرية فانتابني إرتجاف عميق وانتشرت في الجو ظلمة دامسة فبكيت، بكيت بكل حرقة فاستيقظ، رفع رأسه مرعوباً وصرخ:

- ما هذا أيتها العاهرة، إذهبي وإبكي في مكان آخر، أريد أن أنام.

لملمت ذلي وإنكساري وخرجت، ليس لأطيعه أو في سبيل راحته وانما كي لا أراه، كي لا يطالعني أنفه المدبب ونظارتاه الذهبيتان فوق نظرته المتعالية. خرجت إلى الشرفة تاركة الليل يخترق جسدي، أيقنت أن جميع الأثواب التي حصلت عليها ما عادت تعني شيئاً، كل هذا الاثاث الفاخر الذي أحطت نفسي به يبدو بارداً وقارساً، وتجتاحني رغبة مجنونة إلى حضن دافىء وفتي. وداعبت صدري موجة باردة فسرت رعدة في جسدي واجتاحني سرور عاصف لأنني لا أضع على جسدي شيئاً من تلك القذارة التي بعت نفسي لأجلها، لكن يداً مرتجفة أمسكت بضفائري وجذبتني إلى الداخل، وتعالى صوته ويداه تهويان على جسدي تحطمانه:

- ماذا تفعلين يا عاهرة؟ تقدمين نمرة مجانية، أم ترى تغوين أحدهم كما اغويتني؟

بصقت في وجهه وصرخت:- كنت تلهث خلفي كالكلب وما زلت تلهث ككلب عاجز.

ضحك بلؤم قاتل:- لست أكثر من عاهرة، مثل مئات العاهرات التي لاحقتهن وستبقين تحتي وعندما تموتين ستكون أفخاذك مشرعة لي.

- ومتى كنت تحتك، حتى كنت قادراً أن تكون فوقي؟ فعاد ينهال علي ضرباً، ذلك هو الشيء الوحيد الذي يتقنه.

★ ★ ★

- الذنب ذنبك.
- أعرف.
- لا، لا أعني الماضي، أقصد الآن، المستقبل.
- ماذا تعني؟
- لماذا لا تدعينني أراك.
- لم يحن الوقت بعد.
- متى يحين؟ مضت مدة طويلة وأنت ما تزالين تمانعين.
- هل تتزوجني؟
- ربما، ينبغي أن أتعرف إليك، أعاشرك، وبعدها نرى.
- ألا تحبّني؟
- صوتك دافىء وناعم، أتخيلك أنثى بكل معنى الكلمة ولكن ينبغي أن أعرفك كي أقرر.
- سأعجبك.
- أعرف، ولكن ألا أستطيع أن أراك. أن أعرف من أنتِ، ما أنتِ؟

شجرة دفلى كان يأوي إلى ظلالها كل شباب القرية وينقشون في جذعها عذابات اللحظة وابتساماتها. كانوا يلتقون تحت أغصاني في دروب العشية. وإذ يجتمعان في قبلة محمومة يختلج جسدي كوردة تمسكه أنامل عاشق فيما صدر محبوبته يخفق كوعد، كنت إذ أنبثق في الحقول المستحمة بالشمس تعبق الزنود بوسم جديد وأغنية سعيدة، تنزلق الغيوم حتى تعانق رؤوس الشجر. لم أكن جسداً، كنت طيفاً، حلماً، أمنية يحلو الحديث عنها في السحر، لكنني الآن لا أدري. أبدو كعروس محنطة في ثيابي الزاهية.

- البارحة، كنت أقرأ في مجلةٍ فيما كان...
- غريب، من أحاديثك تلوحين صحراء لا يرويها مطر.
- لا، أنا لا أهتم بذلك، وأنت؟
- أعتبرها حاجة طبيعية كالأكل والشرب.
- ألك تجارب؟ هل تمارس الجنس دائماً؟
- ليس دائماً، أحياناً.
- كم يكلفك ذلك؟
- هل تقصدين؟
- نعم كل الشبان يذهبون إلى الملاهي ودور البغاء حيث يحصلون على لذتهم لقاء مبلغ.
- صحيح، ولكني لا أدفع، لديّ صديقة.
- لكنها لا تستطيع أن تعطيك الكثير.
- بلى، فهي متزوجة.
- مطلقة؟
- لا.
- ولكن كيف؟
- تقول إنها ستعيش مرة واحدة.

كانت تقبع قبالتي بكل أنوثتها وقحطها، عذاباً من عذابات اللحظة، تميل بجسدها العنيف، تكتسحني أعاصيرها وبحارها. كان بي جوع هائل إلى أرضها السحرية، جبالها الشماء ووديانها البكر، كان يجب أن أنغرس في تربتها الحمراء نزيفاً صاعقاً وجناحاً أخضر، ولكن لم يكن أمامي سوى درب مستقيم يشرف علي من آخره موتي، ولست أريده، لا أقبله، أعود ألملم أجزائي وأندفع مع التيار الهادر مفتشاً عن مواطىء قدم. لم يكن يجتاحني خوف فحسب بل رهبة أيضاً وكره غريب يتجمع في أروقة الصدر، سؤال لجوج: هل تحبني؟ هل أحبتني يوماً؟ هل أنا صورة تداعب الجفنين طويلاً أم تراني تفصيلاً صغيراً منها، سلماً أو جداراً، بناءً مغلقاً وستاراً؟ لم أكن أعلم كما لم أكن أستطيع أن أجد الخيط الفاصل بين كرهي لها وحاجتي المجنونة إلى سهولها، وديانها، نهدها الأبي وثغرها، آه من ثغرها وعصافيره الشتائية.

- قل الحقيقة، هل تتزوجني؟
- قلت لك يجب أن...
- كفى، كلكم أنذال!
- لا، ولكنك تنظرين إلى الأمور من زاوية واحدة، لو أردت أن أتزوجك الآن لما استطعت، معاشي لا يكفي، وهذا الغلاء سيحول كل همّنا إلى السعي وراء اللقمة.
- لو تأمّن مبلغ كبير، يشتري شقة؟
- تهون أشياء كثيرة..
- هل تتزوجني عندها؟
- قلتُ تهون أشياء كثيرة، ولكن الحياة أكثر تعقيداً، يجب أن ننسجم، ربما لم أعجبك.
- أنت تراوغ!
- لا، ولكن لماذا لا تدعينني أراك؟ لماذا لا تتركين لي، لنا الفرصة كي نعيش عمرنا المرّ في سعادة وهناء؟
- لأنك إنما تسعى فقط إلى لقائي ثم تتهرب بعدها كما تتهرب الآن.
- جرّبي!
- جرّبي، نعم، أجرب وما الذي يمنعك بعد أن أجرب من أن تعلن فشل التجربة ومن ثم تدير ظهرك وترحل؟
- لا أستطيع أن أقنعك ولا أستطيع أن أبرهن لك. أنت فقط تستطيعين أن تقرري.
- ماذا أقرر؟ أن أتركك تعتلي جسدي تصب في بئره كل قذارتك ثم تمضي؟
- أنا لم أشترط علاقات جنسية.
- غداً تخترع سبباً لذلك.
- لا، أعدك، جرّبي.
- لا أريد أن أجرب ولا أريد أن أسمع صوتك بعد الآن،

كلكم مغتصبون، حقيرون، وكلنا احصنة اللذة والسباق التي تتباهون بها.

مرات عديدة رددتها، لم يبق غير الشرفة، باب أخير للحرية المفقودة، مرة واحدة نعيش وعليّ أن أمضيها مع كهل ورغبة مجنونة بالضياع بين ذراعين قويتين، شهوة مرة لأن أُمتلك مرة واحدة، أُذبح كليلة سمينة، أردم كبئر ملعونة. في الليلة الماضية، شددته إليّ كانت الرغبة المعهودة تعصف بي وحافة الذوبان والضياع تبدو على أطراف جسدي كنسر غاضب متأهب، شددته إليّ، وأرحت ثقلي عليه، لكنه شخر بقوة ثم دفعني جانباً وهو يصيح لاهثاً: «أنت لا تشبعين، أنت بحاجة إلى طابور من الرجال يضاجعونك، الواحد تلو الآخر، بلا توقف ولا كلل!» ولكن متى ضاجعني مرة واحدة كرجل؟ متى امتلكني؟ متى تنتهي هذه الدوامة؟ لو يدري أن ماله بكامله لا يساوي صدراً شاباً، لا يضع رجلاً واحداً، إلى متى أحتمل، إلى متى أحتمل؟

- ألو

- ألو، سمير من فضلك

- سمير، آه نعم لحظة من فضلك. سمير، مكالمة لك.

- آلو، مرحباً أين كنتِ؟

- أمضيت أسبوعين في منزل أهلي.

- هل تشاجرتما؟.

- نعم، تركته وذهبت، قرّرت ألاّ أعود ولكنه ركض خلفي وتعهد لي بأشياء كثيرة فقبلت.

- وهل حقق لك ما تريدين؟

- لا ،وكنت أعرف أنه يكذب ،ولكني عدت لأن منزلنا لم يعد يُسكن.

- ولكنه خير من هذا المأزق، هذا القفص الذهبي!

- أنت لا تعرف لماذا قبلت بالرغم من أني متأكدة من كذبه.

- لأنك لا تحبين الفقر؟

- لأنني لم أعد استطيع العودة إليه، لقد ضربني والدي لأنني عدت، وأمي نعتتني بالمجنونة وبدت على شفاه حيّنا ابتسامة سخرية وشماتة. أتعرف، أنا أحسدك.

- تحسدينني!؟ على ماذا!

- على أنك رجل.

- رجل، نعم ولكني رجل مخصيّ حتى إشعار آخر، بطل مع وقف التنفيذ، صامد أُمسك فاطمة وأعرّيها لهم، يستبيحون جسدها، يقدمون كنوزها لأسيادهم وفاطمة محلولة الضفائر مقفرة الوجه تمسح دمعة بيد وتمسك بالأخرى طفلاً يرضع وتدور في الشوارع الممزقة كجوارب امرأة، تدور تدور، تستعطي، يساومها أحدهم فتهز خصرها، ترقص على أنغام موسيقى ناعمة، تبدأ بخلع ثيابها قطعة قطعة تحت الأنوار الحمراء المبللة بالشهوة، يصفق الحضور ويصرخ أحدهم طالباً زجاجة ثانية من الويسكي فيما يتمايل جسد فاطمة وقد تخلصت من آخر قيد وأثقلت عريها بكل العيون، تهزّ خصرها تهزه. تهزه. تتساقط في جيبها بطاقات بطاقات. تصعد إلى سيارة، تترك يده تبحر في جسدها، تعزف الحانا باردة جوفاء، تميل عليه، تنحني، تنحني، تشعر بجيبه مكتنزاً كلهاثه النتن، تبعثر الأوراق المالية بلا اهتام .ورجل يأتي، رجل يذهب وعيناها ترمقان ساعة يدها خلسة وفجأة يتعالى صراخي في الغرفة المجاورة فيا تتابع الخطوات الثابتة تقدمها، تطرق الباب طرقاً غريباً،تنتظره منذ زمن بعيد. وإذ أتساقط تفتح الباب في وجل وتجتاحها نشوة عارمة وهي تلمح سكيّنه الدامية، فتصرخ، تصرخ، يتشنج جسدها، تتوالى الدفعات، تتوالى في أديمها الطيب ويغطي جسمها عرق غزير، يسبح المطر غاسلاً شوارعها الضيقة وأزقتها القذرة، تختلج ودم غزير يتطاير من جرحها المميت ويغور عميقاً بين فخذيها، يغور، توقفه صرخة وفم صغير يمسك بحلمتها ويضع يده على الحلمة الثانية.

- منذ ثلاث سنوات ولم تنجبي منه ولداً.

- لا.

- من المسؤول؟

- ......

- أنتِ أم هو؟

- .....

- الطبّ يصنع المعجزات أحياناً.

- .....

- ما بك، أتبكين؟

- هل تحبني؟

- أنا أستلطفك وأعتقد أنك امرأة رائعة وانتظر بكل صبر مخابرتك التالية، يبدو أنك تملئين عالمي شيئاً فشيئاً.

- كلكم سواء، لا تريدون سوى امرأة تعتلونها عندما تريدون وتتزلقون عن صهوتها حينما تشاؤون دون أي اهتمام بها.

- أنت تعلمين أنني أحترمك وتعلمين أنني لا اتصرف هكذا، ليست المرأة بالنسبة لي مطية أو متاعاً، إنها شريك، نصفي الآخر.

- هو يقول ذلك أيضاً ولكنه لا يريد أولاداً مني.

- ولكني لا أفهم لماذا لا يريد أولاداً، فهو غني ويناهز الخمسين، آه ربما لا يستطيع فينتحل حججاً لذلك.

- أنت لا تعرف الحقيقة.

- اعتذر، ربما ضايقتك ولكني رغبت في أن أساعدك.

- لا بأس، أتعرف لماذا بكيت، بكيت عن الذل الذي أتعرّض له.

- ذل؟ كنت أعتقد أنك تعيشين كأميرة.

- أميرة؟ أتعرف لماذا لم أنجب منه؟

- لماذا؟

- عندما يشعر بقرب شهوته ينهض بسرعة وينتحي جانباً.

- لماذا؟

- لأنه لا يريد أن أنجب أولاداً منه. أنا سليلة العائلة الفقيرة التي جلبت العار له ولأهله.

- جلبتِ العار؟

- نعم فانا كزوجة كارثة، وكأم غير مناسبة مطلقاً، ولكني كجسد، كبئر شهوة، لا أضاهى.

* * *

كان بإمكاني تناول الرشاش وفي اللحظة التالية كان المسلحون الثلاثة سيصبحون في عداد الأموات، وكنت سأمسك الريح أديرها كيفما أشاء بدلاً من أن أتركها تعبث بالزورق بلا رحمة، لكني وقفت في العراء تمثالاً ينظر دوماً إلى جهة واحدة ولا يعنيه أبداً ما يجري حوله. كانت فاطمة هناك بين براثن الذئب حملاً وديعاً يرقص رقصته الأخيرة قبل الذبح، وكنت أقف في الشرفة منقباً عن حب، عن رغبة حادة في الدفاع عنها عندما عبرت جسدي بأكمله موجة من الرضى، التشفي، لست أدري ولكن يديّ تجمّدتا تلقائياً وراء ظهري فيما التصقت عيناي بالمجموعة. كانوا ثلاثة مسلحين يحيطون بفاطمة، يتحسسون ثيابها متظاهرين بتفتيشها، وفجأة صرخ أحدهم متصنّعاً الجد:

- إنها تهرب القنابل تحت فستانها!

فأجاب الثاني فوراً: لنرَ!

وفي اللحظة التي تلت بدأ فستان فاطمة يرتفع وجسدها البكر يشرق مكسواً بخجلٍ ساحق. صرخت «لا!» تحسست رشاشي الملقى في أسفل الشرفة لكني تجمدت عندما صرخ الثاني: انتبه، هناك رجل في الشرفة.

فأجاب الأول بعد إلقاء نظرة سريعة:

- إنه غير مسلح، على كل حال راقبه.

تجمّد الدم في عروقي وأنا ألمح صدر فاطمة يندلق كرعد هائل، بينما بدأ الأول يفكّ سرواله. بدأ عالمي ينهار ومستقبلي كله يتجمع في قطعة الحديد الحامية أسفل قدمي، ولكن هذا الخط الفاصل بين الرغبة والرغبة وحياتي التي نسجتها بصمت، بتعب، وهذا التراخي اللذيذ فيما البحر يندلق بصمت وإغراء وتلك التي ستتصل، من سيقول لها أين أنا؟ ماذا ستشعر؟ هل ستبكي؟ وراغد سيتابع مغامراته كعادته، وعندما أمرّ في باله سيهز رأسه مؤكداً أنني بقيت أبله كما كنت وكما سأبقى. تفسخت الأرض تحت قدمي وما بين الرغبة التي لا أملكها والرغبة التي تسري في عروقي بدأت أغرق، أغرق، وتساقطت فاطمة، تساقطتُ، وكان آخر ما رأيته فيما الضباب يكاد يسدل دمعه الثقيل جسدها الخصب، جسدي المعبود يتمرغ في التراب تحت ثقل الرجال الثلاثة وجحافل شفاههم النهمة، فيما أخذت تمايل، تدفعهم عنها، تدفعهم بلا فائدة، رفعت يدي في حركة يائسة أبحث عن حجر، عن غصن أتعلق به فعثرت يدي بصرخة، صرخة لم أدرِ كيف انبثقت من المنعطف وبدّدت كل العتمة التي بدأت تنتشر، خرج من المنعطف كنبيّ، قذفته الآهة والرعب القديم، وانتصب قبالتهم شاهراً رشاشه وقميصه الأحمر يكشف عن بعض شعيرات بدأت تنمو فوق بلاط الصدر. قال بهدوء مرعب «دعوها!» نظر إليه الرجل الأول وهو يعالج سرواله وقد انتابه رعب مكين فيما زجر الثاني: «دع اللعب بالسلاح أيها الطفل وعد إلى كتبك ودفاترك، فأنت صغير على السلاح ولا تفهم أصول اللعبة».

فأجابه بهدوء وثقة: «أبداً، أنا أدرك أصولها بشكل مرعب ولكن من زاوية أخرى، بعيدة جداً عن زاويتك وقريبة في الوقت نفسه، انها قبالتها كما أنا، كما نحن».

ثم رنا إلى فاطمة، وهي تنخرط في بكاء عميق وقال باللهجة نفسها:

- الآن، فاطمة، تستطيعين العودة إلى منزلك.

كان هناك يقف بقامته النحيلة، يقف قبالتهم وفاطمة تسير نحو منزلها، أحد الرجال أخذ يتحرك ببطء يرفع رشاشه برجفة واضحة. كان باستطاعتي تناول سلاحي الملقي في أسفل الشرفة، لكنني اكتفيت بأن أصرخ: «إنتبه!» فرفع شقيقي الصغير رأسه عن خيال فاطمة وحدق في عيني فيما كان يطلق الرصاص بغزارة وهو يصرخ: إنهم جبناء، جبناء. فتساقط الرجل دفعة واحدة بينما تعالى صوت شقيقي برجولة غريبة: «من يتحرك يمت». تمتم الرجل الأول متوعداً: «لن تفلت من أيدينا»، فنظر ملياً إليهم وقال: «وأنت أيضاً، لن تفلت أبداً ولن تستطيع بعد اليوم أن تدخل إلى حيّنا كما كنت، حيث لصوت حذائك رنة الشبق، متى جئت ستجدني هنا بإنتظارك وسيلاقيك الرصاص ويودعك حتى يقتلعك من الجذور».

هزّ الرجل رأسه بيأس للمرة الأولى وغمغم:

- سأعود، وسوف ترى.

- ستعود وسوف ترى أنّ حينا ما عاد فخذاً مشرعاً ولا منجماً لك ولأسيادك، سوف تعود وسوف ترى أن خلف هذه البيوت المتداعية رصاصاً ينتظرك ليمحوك إلى الأبد أيها الفطر السام الذي يعرش على جذوع الأشجار الباسقة. سوف تعود وسوف تجدني، تجدنا في انتظارك لنبدأ غداً جديداً وحياً آخر لا عهد لك به ولا مكان لك فيه.

كان الرجلان يركضان برعب، وقامته تشق الزغاريد وهو يلوح لي بسلاحه. تملكتني نشوة غريبة، تفتحت وردة حمراء وشاهدت فاطمة أكثر قرباً ولكنها للمرة الأولى لم تحدق في عالم مضى، كانت تتابع خطواته الحديدية حتى اختفى، فغادرت الشرفة بالرغم من أنني كنت لا أزال مسمراً في شرفتي، تلك كانت المرة الأولى ولم يكن بي حزن عميق لذلك لا ولا فرحة باسقة، فقط شعور غامض ينتابني وأنا أغادر شرفتي بخطى متعبة. أشعر أنني لست من هذا الحي وإنما وطني زرقة تركض بلا هوادة كأنها على موعد منتظر.

عندما علم أهل حيّنا بما جرى كنت بعيداً فقالوا إنها الحرب وقالوا إنها الجنون، لكني كنت بعيداً وقالوا إنها غضب الإله وسخطه على عباده. وعندها كنت أبعد فاستطعت أن أسمع بصعوبة صوت شقيقي الصغير يدوي من الجهات الأربع بحنق وغيظ صارخاً ومؤكداً، أنها فاطمة. وعندما وقفت أمام المرآة لم أجد صورتي، كانت بعيدة، بعيدة، بعيدة، وشاحبة تماماً كفاطمة التي ظلت تنتظرني في الشرفة ولكن من آن لآخر يستطيع أي

عابر سبيل أن يرى في عينيها الكئيبتين نظرة إحتقار عميقة لا أبالي بها، على العكس أجابهها بنظرة غربة مريرة.

– البارحة رجوته أن ينتظرني قليلاً، ألاّ يتركني على حافة الولع لكنه همس برنّة ملآنة بالضعف والوهن: لا أستطيع لا، سأحاول، سأ.. حا.... وتمدد إلى جانبي كتمثال بارد من حجر وقرف.

– ربما لم تكوني مثارة بشكل كاف.

– وربما ليس رجلاً على الإطلاق.

– تستطيعين تدبّر الأمر.

– في تلك الليلة أمسكته بعنف وأخذت أضغط، أضغط. تعالى لهاثه وجحظت عيناه فبدا مضحكاً، مضحكاً، فلم أتمالك نفسي. ضحكت بعنف فيما كان يصرخ: «مجنونة، أنت مجنونة، تريدين قتلي يا عاهرة»

– لا تقولي لي إنك قد حاولت قتله.

– ولم لا؟ ذات يوم سأفعل.

– لماذا لا تطلّقينه بدلاً من إرتكاب جريمة؟

– لأنني في هذه الحال سأخرج خالية اليدين.

– خالية اليدين؟

– نعم، سأفقد المؤخر من جهة ومن جهة ثانية ليس لي ابن يرث، بشكل آخر سأكون عاهرة مجانية.

– ولكنك سترجعين مرة أخرى طليقة وستتزوجين شاباً يحبك.

– هل تتزوجني؟

– لست أدري، يجب أن...

– لست تدري؟ ألا تحبني؟ ألم تقل لي بأنك تشعر بشوق كبير لسماع صوتي، لرؤيتي، كم مرّة ألحتَ في طلب ملاقاتك.. كم؟

– الحب ليس غيمة تمطر فجأة على رأس إنسان فيبتل ثم لا يجف. أبداً، الحب تفاهم، وهذا التفاهم لا يتم إلا متى تلاقينا، تحدثنا.

– غازي يقول ذلك أيضاً، كلكم ترددون الكلام نفسه.

– غازي؟ من هو؟

– شاب تعرفت عليه بواسطة الهاتف واشترط رؤيتي أيضاً وألح في سبيل ذلك.

– معه حق.

– لقد كان مجنوناً بي، يهواني بشكل لا يصدق، ما أن أنتهي من طلب رقمه حتى يأتيني صوته المليء بالرجولة يهدهدني، يطير بي.

– ألم تريه؟

– بلى، مرتين وقد قبّل يدي، وقال إنه رهن إشارتي وانه على استعداد لقتله إن أردت.

– ماذا؟

– قال إنه في سبيلي يفعل أي شيء، وعلى كل حال ليست هذه مهمة صعبة اليوم.

– لا أعتقد أنك ستنحدرين إلى هذا المستوى.

– لا بكل تأكيد ولكنك إن أخبرت أحداً فإن غازي...

– أنا لا أخبر أحداً بما أسمع من أصدقائي، اطمئني، أنا معروف بين رفاقي بأنني بئر عميقة.

– هل صدقت كل هذا؟ كنت أمزح.

– أعرف أنك تمزحين فصوت رقيق وأنثوي مثل صوتك لا يأتي أعمالاً خشنة كهذه، أنت امرأة حريرية لا يليق بك إلا الحرير.

– كفى فأنا أعمل هنا كخادمة.

– أليس لديكم خادمة تساعدك؟

– لا فهو بخيل جداً.

– لا ترضخي، أرغميه.

– عندما طالبته نظر إليّ بتعال وقال: «هل كان في بيتكم خادمة؟» ثم أكمل وكأنه يحدث نفسه: «صارت الخادمة تريد خادمة!».

– لماذا يهينك باستمرار؟

– ذلك الشيء الوحيد الذي يتقنه. ولكن لو انتهى الأمر هكذا لهانت المشكلة، غير أنه عمد إلى إحضار والديه فتحولت المصيبة إلى مصائب حيث صارت أمه في الوقت الذي لا تصلي فيه توجّه لي الأوامر المتصلة..

– الحياة دائماً هكذا، ولكن ربما ساعدتك بخصوص الإبن.

– تساعدني؟ أنت بسيط، طيب القلب أو أبله. إنها أشد كرهاً لي واحتقاراً من ابنها. وهما يعتبرانني فضيحة ويرجوان وربما يبتهلان في صلاتها كي لا أنجب.

– وضع صعب، أتعجب كيف لا تقبلين بالطلاق.

– في الأسبوع الماضي ذهبت لزيارة أهلي، وعندما عدت كان يغلي كالمرجل وهددني بالطلاق فقلت له إن تلك أمنيتي فكن رجلاً ولو مرة واحدة فانهال علي ضرباً حتى أغمي علي.

– ربما لأنه كبير السن وأنت صغيرة يخاف.

– لا سيما وأنني في عمر ابنه تقريباً.

– ابنه، هل هو متزوج؟

– وله ولد واحد خامل مثله.

– وأين زوجته السابقة؟

– طلقها بعد أن ركبت له قرنين ذهبيين.

– لهذا يغار إذن؟

– نعم، لقد ذاق طعم القرون وهو يستحقها بجدارة ولكن ما ذنبي أنا؟ ماذا فعلت؟ هي التي وجدت عشيقاً وهي التي أمضت ليالي حمراء، تمتّعت بشبابها بدلاً من أن تذبل وتموت. أما أنا، ما من امرأة تحتمل هذه الحياة. ومع ذلك أحتمل وأدور، أدور، أدور يدور بي العالم.

– لا تحسدك امرأة على حالك.

– وهو غير مسرور، أنظف البيت، أعتني به وبأهله، أجعل من نفسي خادمة لهم. وعند المساء أعطر جسدي وأقبع بانتظاره لعلّه يريده. ولكن أحداً لا يسأل ما بي، إلى ماذا أحتاج؟ لا أحد يقول إنني تعبت! كلّهم يتهمونني حتى أمه العجوز أحتار

كيف أدفعها عني لا أحد يهتم بي. كلهم ينظرون إليّ باحتقار، لا يسمحون لي بالخروج إلى غرفة الاستقبال عند وجود ضيوف. ومع ذلك يأكلون لحمي بشهوة لا تضاهى. أكرههم، أكرههم، أكرهكم.

- ....

- أحياناً أفكر بالانتحار، بالقفز من هذا الطابق العاشر لأحطم جسدي على سيارته، على هذه السيارات التي تضم أزواجاً وزيفاً ونتانة. تكلم أنت الآخر. ما بك؟ هل نمت؟ هل مت؟

- أنا هنا أستمع إليك. في الواقع أنا متأثر جداً ولا أدري كيف أستطيع أن أساعدك. أنظري حولك، لا بد أن هناك مخرجاً. إنها حياتك، وإذا فكرت قليلاً تستطيعين أن تحصلي على تعزية، على شيء يعيد لك البهجة.

- لا شيء غير الانتحار.

- لا، فكري، لا بد أن هناك ممراً، حلاً.

- الطلاق.

- هل سيقبل؟

- لا أدري، ولكن إلى متى أحتمل؟

- لست أدري أنا أيضاً. أنت وحدك تملكين القرار.

- ها هو زوجي يعود، يجب أن أقفل الخط.

- وأنا علي أن أعمل.

- إلى اللقاء، هذه قبلة لك.

* * *

لأول مرة تزورني فاطمة، تأتي إلى منزلي حاملة معها كل الأعاصير والعواصف والإعياء، جلست بقامتها القمحية قبالتي وضفائرها تتهدل فوق المنازل التي مزقتها القنابل. تهت في صحرائها، غرقت في دمار عينيها ولفّني عطرها المستحيل، حدثتها طويلاً عن القحط والمواعيد التي تنبت بدلاً من الحب وتشكيت من السوط الذي يلتف كالأفعى عن أحذية الجنود الثقيلة ووحدة الليل الدامسة، أخبرتها عن مخاوفي والعرق الغزير الذي يتصبب من جسدي وإستيقاظي المذعور. لكنها لم تتكلم. ولم تشد عينيها من البعيد البعيد الماضي الذي تعيش فيه، ومال جسدها قليلاً وتراخت يداها وبدأت العصافير تسافر، فيما ريح خفيفة تداعب بشدة أغصان الشجر. وبدا كل المكان ينذر بخريف مبكر. ومن بين ضبابه الداكن رفعت عينيها فجأة وتساءلت: «ألم يعد بعد؟ هل تراسله؟ بلّغه شكري وأشواقي.» وذهبت قبل أن أجيبها، ذهبت ساحبة خلفها ذيلاً من الجثث والأجساد اليابسة.

- آلو.

- آلو، سمير هنا.

- سمير؟ ليس هنا أحد بهذا الإسم.

- راغد مهلاً، دعني أتكلم.

- صار لك إسم تنكّريّ..

- آلو

- من الذي تكلم معي؟

- إنه راغد صديقي، الواقع أن لدي بعض الأصدقاء

- حسناً سأتصل فيما بعد.

- من الأفضل ذلك، إلى اللقاء.

شبحها في الشرفة جزء من الشرفة، وحافة النهار تميل إلى الانهيار. بيننا الطريق وظل رصاصة في الجدار. فاطمة الكآبة، فاطمة الحزن، الدمع، الماضي السحيق الرحيل، يطل البحر طول النهار ملوحاً بمناديله البيضاء يدعوني إلى صدره الساحر حيث اللؤلؤة الوردية تزهر في الكف، تنبت أحلاماً وحقولاً وأساطير يمحوها شبح فاطمة، أشد قامتي وأميلها مع الريح، أستعير من العصافير التي تمر بنا جناحاً وأطير. موسم البرد جاء وتعرّت أذرعة الشجر، استعادت الأرض ضفائرها ميتة وانخرطت في بكاء طويل، جاء الثلج يشف عن شراع صغير. أشد قامتي وحبّنا القديم ينمحي وتذبل في الظل فاطمة وتذبل الشرفة ويخضّر المستحيل.

- آلو

- أخيراً استطعت أن أجدك.

- أنتِ؟

- من كنت تظن؟ أم تراك كنت في انتظار فتاة ثانية ولذلك أجبت على غير عادتك؟

- لا، كنت أعرف أنك أنتِ ولكني مشغول جداً في هذه الأيام.

- أردت أن أخبرك بأني طلقت.

- ماذا؟

- لقد حصلت أخيراً على طلاقي واستعدت حريتي.

- ومتى كان ذلك؟

- منذ أسبوع، ما رأيك؟

- أعترف أنك جريئة وأنا أحب الجريئين.

- وأنا، هل تحبني؟

- أشعر بشوق هائل إليك.

- متى أراك؟

- عندما تشائين... غداً.

- حسناً سأتدبر حجّة وأخرج. هل تناسبك العاشرة؟

- تماماً، ولكن لماذا ستدبّرين حجة؟

- الواقع أني ما زلت في منزل زوجي ولكن الدعاوى بيننا

- هل يرفض أن يعطيك حقوقك؟

- وحتى أن يطلقني، لقد قال إنني لن أخرج من منزله أبداً إلا إلى القبر..

- أنت لم تطلقيه إذن؟

- سأرغمه على أن يدفع كامل حقوقي أو أن يمنحني طفلاً يَرِث. لقد لامته أمه لأنه ضربني بهذه القسوة وشعر هو نفسه بقسوته عندما شاهد الدم ينزف من جرحي. أتعلم لقد ضربني بسكين لكي يشوه وجهي.

- هل تشوّهت؟

- لا، لقد أمسكت يده فكانت الضربة سطحية

- ....

– على فكرة ماذا ستلبس؟
– أنا؟
– نعم غداً.
– لست أدري، فأنا عادة لا أهتم كثيراً بالثياب خاصة في أيام العمل، ألبس ما أجده وأخرج.
– ولكن كيف سأعرفك؟
– تعرفينني؟!
– ما بك؟ ألم تقل إنك ستأتي غداً لرؤيتي؟
– لرؤيتك! غداً؟ من قال؟
– أنت قلت منذ قليل إنك ستلاقيني عند العاشرة.
– لا، عفواً، غداً لديّ عمل كثير وأنا بالكاد أجد الوقت لتناول الطعام.
– أنت لا تحبني.
– لم أقل ذلك.
– إذن دع العمل وتعال إليّ كيف نتعارف، ستكون معي سيارة وسنذهب إلى الجبل.
– أنت تعرفين الحياة كم هي صعبة، أحاول أن أعمل كثيراً كي أوفر بعض المال الذي يساعدني.
– متى أراك؟
– لست أدري.
– لا تدري؟ ستأتي غداً أم لا؟...
– لا أستطيع، لديّ عمل كثير واليوم أيضاً. وبعد عشر دقائق عليّ الخروج والذهاب إلى العمل.
– تقصد أنّ علي أن أقفل الخط.
– لا، لماذا تفكرين بهذا الشكل الدرامي؟
– لن أتصل بعد اليوم، لا تخف.
– أنت حرة.

مساء آخر يأتي حاملاً معه كل الضجر، سأجلس منتظراً حدوث شيء ما، ربما رصاصة طائشة أو هاتف أو إنتظار آخر. النافذة مفتوحة على الليل، ليل الأحد، الباب موصد على الليل، العين برّاقة فيه، الليل صديقنا الأخرس أو قل الفاشل الأكثر فشلاً يعود دائماً منكس الرأس ولا يمل من قامتنا المنحنية ولا يشعر بالقرف، يثير قرفي....

طارق في الجوار، الأصحاب وصلوا في الموعد المحدد، لأفتح الباب وأترك الوحدة تدلف بصخب، برارة، بابتسامة واسعة...

الأول: أنا لا أستطيع أن أفهم كيف تزوج راغد هذا؟
الثاني: يبدو أنني سأنام باكراً.
الثالث: العمل العمل وحده لا يكفي يجب أن تكون فناناً خبيراً.
الرابع: هؤلاء الرفاق يفكرون بصوت مرتفع بشكل بغيض
الأول: لا أحد يفهم أن إعالة العائلة تتطلب تضحيات جسيمة وراغد هذا.. لا....؟
الثاني: عملي مرهق جداً.
الثالث: من يلعب « بالورق »؟
الأول: لا أستطيع أن أفهم كيف يعيش هؤلاء الناس، كيف يتزوجون، يتناسلون كيف؟
الثاني: من معه دواء للصداع؟
الرابع: يبدو أنني سأتفرج على التلفزيون
الثالث: البارحة ربحت مبلغاً كبيراً ولكنني خسرته اليوم صباحاً.
الرابع: التلفزيون ممل كالعادة، ألا يريد أحدكم أن يلعب « بالورق »؟
الأول: أشعر بحاجة مرّة إلى امرأة.
الرابع: تبدو لي هذه السهرة حميمة جداً.
الثاني: أعتقد أننا سنعلن الإضراب غداً، ولكن ماذا تنفع الإضرابات؟ يرفعون الأسعار قبل أن يرفعوا الأجور.
الثالث: من يلعب « بالورق » ربما استرجعت خسارتي.
الأول: أنا لا أستطيع أن أفهم كيف يسير هذا العالم.
الرابع: ألا يريد أحدكم أن يلعب الورق؟
الثالث: اللعنة! هل يلعب أحد بطاولة الزهر؟
الثاني: أسعدتم مساءً.
الثالث: لقد كانت سهرة ممتعة بالرغم من أن أحدكم لم يلعب معي « بالورق ».
الرابع: من يشرب معي كأساً؟ لست نعساً!
الأول: أنا لا أستطيع أن أفهم....

كنت أسير حاملاً كل التعب عندما رأيت أحدهم يربّت على كتفي فجأة، إلتفتّ بتثاقل فطالعني وجه أعتقد أنني أعرفه أو بالأحرى كنت أعرفه، لم أتعب نفسي في محاولة تذكره، قلت ضجراً: من أنت؟
– ألم تعرفني، أنا فاطمة.
– فاطمة؟ ماذا تريدين؟
– ما بك؟هل نسيتني؟ هل أنت مريض؟
– هل أنت طبيبة؟
– الواقع أنني بدأت أعمل ولكني طبعاً لست طبيبة.
– تعملين؟!
– نعم المرأة لا تكتمل شخصيتها إلا بالعمل.
– عظيم.
– كما أنني أشارك في حركة حرية المرأة.
– أنت تدهشينني.
– أتعلم كم أحبك؟
– أنا؟ لماذ؟
– لماذا؟ من كنت أنتظر؟ من أجل من كنت تقبع في الشرفة ساعات وساعات؟ هل كنت تكذب عليّ؟
– آسف أنا مشغول جداً.
– ألا تدعوني إلى فنجان قهوة؟ لقد دعوتني مرة، فهل ما زالت دعوتك قائمة؟
– أعتذر، لا أستطيع.

- هل تنتقم للمرة الأولى؟
- المرة الأولى، لم أعد أذكرها، ماذا حدث فيها؟
- هل أخطأت يا ترى؟ ولكن لا، إنني واثقة، لا شك أن هناك امرأة أخرى.
- ليس هناك أحد.
- أرجوك، لا تدعني، لا ترحل، أنت الحب الأول وأنا بحاجة إليك.
- أنا لن أستطيع أن أقدم لك شيئاً، لا تعرفين في أية ظروف أنا، آسف، بلّغي تحياتي إلى أمك.

وفيما كانت تمضي لتختفي بين الرخام خيل إلي أنها محنية الرأس قليلاً وأنها توقفت مرة وتناولت شيئاً أبيض من محفظتها ربما كان منديلاً. رفعته إلى وجهها الذي لم أعد أراه ثم أكملت اختفاءها. عندما كانت تحدثني لاحظت للمرة الأولى نهديها الذليلين وعجيزة بدت لي ضخمة وإذ تذكرت عجيزة أمها المرعبة. هززت رأسي رافضاً ومحوت صورتها تماماً وأكملت تسكعي. وعندما عدت لمحت خيالها في الشرفة فانبعث في نفسي قرف غريب. وإذ فتحت الباب كان جرس الهاتف يضيء ظلمة الغرفة، إنه راغد لنَرَ إذا كان سيفي بوعده.

- آلو
- سمير لو تعرف.
- لدي عمل الليلة.
- هذا الصباح، آه ماذا أخبرك، أشعر بإرتخاء عميق.
- أفكر كيف سأمضي هذه الحياة، سأبقى وحيداً كالعادة.
- لم يكن في البيت أحد، جميعهم خرجوا وبقيت وحيدة حالمة ويائسة. وفجأة قرع الجرس، فتحت الباب فإذا ابنه يضع يده على رأسه فقلت له:
- ألم تذهب إلى السينما مع أصدقائك؟
- لا، أشعر بصداع مؤلم، لم أستطع الذهاب معهم، إصنعي لي فنجان شاي وأعطيني دواءً للصداع.
- هذه الحياة نعبرها ببطء قاتل ومع ذلك لا نصادف فيها أحداً.
- تمددت إلى جواره فارتجف قليلاً وحاول الابتعاد فأخذت رأسه بين كفي بحنان ودسسته بين نهدي فترك لهاثه بقعة حارة ملتهبة فوق نهدي الأيسر زادتني التهاباً، داعبته، تحسست زنديه، كان في أول رجولته، يتفتح كحياة عامرة في الصحراء.
- في وحدتنا الكريهة لا يوجد غير المرآة وهي تزيدها كرهاً.
- ملت بجسدي قليلاً فالتصق بي كلية. شعرت عندئذ بقوته تطبق علي وبدا مهتاجاً كحصان جموح، دفعته عني قليلاً قائلة: الحرّ شديد.

رفعت ركبتي فانهدل ثوبي كاشفاً فخذي وفككت زرّين فتعرّى أغلب نهدي واستلقيت على ظهري وأنا أهمس: هل ما زال الصداع يؤلمك؟

- يبدو أنه لا بد من الذي لا بد منه.
- همس نعم فقبلت رأسه ودسسته مجدداً بين نهدي، داعبت شعره طويلاً لأساعده وعندما بدأ بتقبيل نهدي وتحسس جسدي تراخيت وقد غمرتني نشوة انتقام هائلة.
- الخيانة كلمة اخترعها الرجال كي يحافظوا على حقوقهم فيمنعوها عن النساء
- نفض عني ثيابي قطعة قطعة، كانت أنامله تعزف في جسدي موسيقى غريبة لم أشعر بها يوماً، اجتاحني كإعصار ولم أستفق إلا على ارتجافه العميق فدفعته عني بعنف وأنا أصرخ: إبتعد، إبتعد بسرعة.
- الخيانة هي التعبير الحقيقي عن المساواة، إنها المعيار الحقيقي الذي على محكه يقاس أي ادعاء.
- رنا إليّ بعتاب وهمس وهو يغالب البكاء: لماذا؟ لم أجب؟ مددت يدي أداعبه فأخذ يقبلها بحنان ساحق وما لبثت رغبته أن تأججت من جديد فهمست قبل أن أتهاوى في كوكب مسحور: أسرع إلى الحمام إغتسل جيداً وعدْ، أسرع.

وعندما عاد وأرخى ثقله فوق جسدي، ضممته إلي، قبلته بشراهة: يا رجلي الصغير، انتبه جيداً لما سأقوله لك.

- ليس المهم أن نصل أو لا نصل، المهم كيف نمضي فترة الانتظار الملعونة.
- ما بك تتحدث اليوم بشكل غريب؟
- عندما لا نصل يلومنا الجميع، يسخر منا الكل وعندما نصل نادراً ما يسألون كيف، يهنئوننا فقط، بالطبع يحسدوننا
- أتعرف، صار بإمكاني الآن الحصول على طفل بكل سهولة سأخبره بأني قد رضيت باستعمال الحبوب وذات يوم سأخبره بأنني حامل، هذا إن أردت وإن رغبت في ذلك، ما رأيك أنت؟
- أعتقد أن هناك من يطرق الباب
- وأنا أسمع خطوات قد يكون زوجي أو ابنه وفي الحالين يجب أن أذهب

القذارة تملأ الطرقات، القذارة في الجيوب، في الوجوه، في الأجساد، عمال القذارة يخوضون إضراباً عتيداً، أيامنا مليئة بالقذارة، الكهرباء مقطوعة، دورنا البارحة فما سبب قطعها اليوم وغداً وبعد غد، قذارة، المياه مقطوعة منذ تاريخ بعيد، قذارة، ومتى أتت تأت مملوءة بالقذارة أينما كنت قذارة، وأينما توجهت يحدثونك عن القذارة، رجل سحقت قدمه، رفض إدخاله إلى المستشفى قبل أن يدفع ثلاثة آلاف ليرة، صرخ: إنني أملك المبلغ ولكني لا أملك أن أحضرهُ الآن، عالجوني وسأدفع. هراء، قذارة بقي مرمياً هناك ينزف حتى مر أحد معارفه ودفع عنه، هراء، الطب تجارته، قذارته، كانت قدمه قد تسممت فقطعوها ببراعة فائقة، قذارة، قذارة موظف يسرق الأوراق البيضاء ويبيعها كي يحصل على دواء القلب قذارة، المال عصب الديمقراطية النزيهة. ديمقراطية النزاهة، إذا أردت أن تكون ناجحاً في حياتك ومحيطك فأنت بحاجة إلى قذارة أكبر، إذا أردت أن تكون شريفاً فأنت بحاجة إلى قذارة لا تحد، قذارة، قذارة ولا عجب بعد ذلك أن يعم هذا الطاعون الجميع

مع أن مستودعات وزارة الصحة خالية إلا من القذارة. قذارة، هنيئاً لمن له مرقد عنزة خارج هذه القذارة، خارج هذه الأكذوبة التي يسمونها وطناً قذارة، قذارة، قذارة.

- آلو.

- آلو، إسمع، لا تقفل الخط، مضى أسبوع وأنا أحاول الاتصال بك، في الواقع أريد أن أخبرك.

- لا تخافي أنا في صحة جيدة.

- صحة جيدة؟ هذا ما يقلقني، لقد أعطيت رقمك لغازي.

- غازي، رقمي؟ أنا كثير العمل ولا أستطيع.

- لا، لا يريد أن يكون صديقاً، غازي هو الذي حدثتك عنه، رأيته منذ فترة، أخبرته عنك وأنك رفضت ملاقاتي بالرغم من توسلاتي فغضب وقلق جداً عندما علم أنني قد أخبرتك عنه وعن خدماته التي عرضها علي فأعطيته رقمك كي يكلمك، وعندما قلت إنني لا أعرف عنوانك قال إن ذلك سهل الآن، إنه لا يرحم، ولكني طلبت منه أن لا يؤذيك.

- ولكني أخبرتك أنني لا أقول شيئاً مما أسمعه.

- أنا أصدقك، أما غازي...

- حاولي أن تفهميه ذلك.

- تعال لاقني غداً عند العاشرة وسأرتب الأمر.

- لا

- ليس لك الخيار، لا شيء يوقفه غيري. إما أن تكون رهن إشارتي أو رهن إشارته.

- مستحيل.

- إنه غريب الأطوار، شرس يهوى الدم.

- عليك أن تكلميه، لا يحق لك، لا يحق لكما.

- أسمع خطوات يجب أن أذهب، إلى اللقاء.

- أبداً.

الآن فهمت رسالة راغد

أشكرك جداً لأنك سمحت لي باستعمال غرفتك، لقد تعرفت على امرأة، امرأة بكل معنى الكلمة، لا شك أنني سأعرفك عليها، إنها من ذلك النوع الملائكي الذي يخفي بغياً وهي ترفض المال وترفض الهدايا، فقط تشترط الحب وما أسهله.

«لقد عدت ثانية فقد نسيت، إتصل بك غازي (من هو هذا الصديق؟ فأنا لا أعرفه) وقال إنه قد عاد من باريس منذ أسبوع وسأل متى يستطيع أن يجدك ليعطيك الشيء الذي طلبته منه فقد أحضره (ماذا طلبت، أتمنى أن يكون ما تحدثنا عنه الأسبوع الماضي، لا تخبئه) وقد قلت له إنك ستكون غداً السابعة صباحاً ثم ذكرته بعنوانك فقد نسيه (يا له من صديق).

نظرت إلى ساعتي، إنها الثالثة بعد الظهر، لحسن الحظ تأخرت، تأخرت كثيراً، ترى من هو غازي، هل هو هذا الشاب الفارع الطول الذي يقف عند الزاوية؟ أم ذاك الذي يقرأ جريدة؟ إنني لا أعرفه. ولكن هو أيضاً لا يعرفني، كيف سأذهب إلى عملي، ربما انقض علي أو ربما اقتحم الغرفه، شعرت بارتجاف عميق ولكن الخطوات تابعت صعودها حتى الطوابق العليا، على كل حال لن أفتح الباب إذا قرعه أحد. رنوت إلى الشارع، ليس هناك أحد. خرجت من غرفتي وصعدت إلى الطوابق العليا وعندما رأيت أحد سكان العمارة نازلاً نزلت بسرعة وسلمت عليه فتعجب وهز رأسه ومضيت أحدثه بسرعة وعن أي شيء يخطر على بالي. وعندما ابتعدنا قليلاً، تركته ولم أنتبه أن أودعه بكلمة باشارة، ومضيت أعدو بكل قوتي مودعاً إلى الأبد حينا الهزيل

- أخبروني أن لديك غرفة للايجار.

- نعم وستعجبك جداً.

- أين هي؟

- ولكنها غالية قليلاً.

- دعني أراها أولاً.

- ها هي، وستكلفك ثلاث مئة ليرة.

- لا، لا تعجبني كثيراً.

- لن تجد بهذا الثمن غرفة مجهزة بهاتف وبكل وسائل الراحة؟

- هاتف، لا، لا أحب أن يكون فيها هاتف.

- ماذا؟ هذه أول مرة أسمع فيها أن الهاتف سيىء ولكن نستطيع تدبر الأمر، نقطع الخط، أنقله إلى غرفة أخرى.

- لا، لا أعتقد.

- الشمس تدخلها منذ الصباح وإذا كانت معتمة الآن فلأننا في لحظة الغروب.

- لا، شكراً

- ربما لم يعجبك الأجر، نستطيع أن نتفق.

- لا، لا، أريد غرفة من غير هاتف وبدون نوافذ كبيرة، واحدة صغيرة تكفي ثم أريدها بعيدة عن الشارع العام.

بيروت